



للمرأة حضور قوي في الشعر العربي، إلا أن هذا الحضور اقتصر على
العشق فقط، فلم تعرف المرأة إلا حبيبة يتهاافت عليها الشعراء كتهافت
الفراش على النار، وبالطبع استتبع ذلك أن يكون وجود المرأة في الشعر
العربي وجوداً حسياً يقف عند حدود الجسد ومضائقه، أما معنويات هذه
المرأة فمنطقة نائية لا يهتدي إليها إلهام الشاعر العربي.

ومع أن الشعر العربي عرف ذوي طاقات جبارة استطاعوا أن يغيروا
مجرى الشعر في أزمانهم إلا أن نظرتهن للمرأة لم تتغير، فمطالع
قصائدهم يجب أن تحتلها المرأة حبيبة مهاجرة أو على الأقل طليفاً وجود
بما بخلت به صاحبه، ولنا أن نتعجب كيف لم يلتفت هؤلاء الشعراء الكبار
لأقرب النساء إليهم، أعني: أمهاتهم.

رثاء الأم في الشعر العربي

فقد اندمج الشعراء المسلمون في الدفاع
عن معتقدتهم الحنيف وهي غاية - بلا
شك - نبيلة سامية، إلا أن هذه الغاية
النبيلة لم تقف حائلاً دون ذكر المرأة
حبيبة في مطالع قصائدهم، وديوان
شاعر الرسول - صلى الله عليه وسلم
- حسان بن ثابت يحوي الكثير من
الشواهد التي تؤكد مذهبنا إليه.



حسن علي شهاب الدين - مصر

أما الشعراء الذين اتخذوا موقفاً
معادياً من الدين الحنيف فقد

انشغلوا بدورهم في البحث عن مطاعن واهية ومثالب
كاذبة يردون بها على شعراء (الإسلام)

فإذا انتقلنا إلى العصر الأموي، فسنجد أن الحال
لم يتغير كثيراً، فقد انشغل شعراء المثلث الأموي
الشهير «جرير - الفرزدق - الأخطل» بنقائضهم

ومن يتصفح دواوين شعراء الجاهلية
يتأكد من أنهم انصرفوا على المرأة
الحبيبة عن غيرها من النساء، وكأن
شعراء الجاهلية لم يعرفوا أما أو أختاً
أو على الأقل، لم تلفت أنظارهم فكرة
الأمومة بمدلولها الواسع حتى إن شاعرة
كالخنساء - وهي سيدة الشاعرات
العرب - وقد عاشت مشاعر
الأمومة وأحاسيسها الخالدة نجد
أن هذه السيدة وقد استنفدت

ديوانها الكامل في رثاء أخيها صخر ومعاوية، لم
تذكر أمها ولو ببيت عابر في إحدى قصائد ديوانها.
ولم تكن حال الشعراء في صدر الإسلام بأفضل
من الجاهلية بالنسبة لذكر أمهاتهم في أشعارهم،
ونحن نستطيع أن نتفهم ذلك في هذه الفترة الزمنية.

في الشعر العربي. والمتتبع لحياة هذا الشاعر سيجد أنه ليس في الشعراء من يستحق أن يكون الفاتح لهذا الباب إلا هذا الشاعر الذي أضاءت التجربة الشعرية حياته كلها، فقد عاش حياته شاعرا ولم يكن يفرق في ذلك بين حياته الخاصة أو العامة، ولم لا؟ وهو شاعر العاطفة النائرة التي تستطيع بشاعرية قادرة أن تصور ماتقع عليه عينه بدقة وهو في ذلك.. يختلف مثلا عن معاصره البحتري، وذلك لأن البحتري من ذلك النوع من الشعراء الذين تختزن ذاكرتهم مفردات الموقف الشعري، ثم تجود به بعد حين قد يطول أو يقصر - إذا وجد المثير - في شعر خالد عميق، وبذلك يمتاز البحتري بعمق التجربة الفنية ونضجها على عكس ابن الرومي الذي تتميز تجربته بالسطحية والتشتت لأنه يقتطف زبد مشاعره. ولهذا السبب تتميز قصائده بالطول المفرط، فكثير منها يتجاوز المائتين من الأبيات، وذلك لأنه يحاول أن يؤكد دائما قوله بالتركرار وتقليب المعنى ظهرا لبطن، ولهذا السبب تأثر ابن الرومي بشدة ب وفاة أمه فأخرج ذلك في قصيدة رائعة، وبرغم أنه كان يسير على غير مثال سابق إلا أنه جعل من قصيدته منارا مضيئا يسير في نوره من يتلوه من الشعراء.. ولنقتطف هذه الأبيات من قصيدته التي بلغت أبياتها المائتين وازدادت ثلاثة (٣):

أقول وقد قالوا: أتبكي كفاقد
رضاعا وأين الكهل من راضع الحلم؟
هي الأم - يا للناس - جرعت ثكلفتها
ومن يبك أما لم تدم قط لا يدم
فقدت رضاعا من سرور عهدها
تعلنه فانقضى غير مستتم
رضاع بنات القلب بان ببينها
حميدا وما كل الرضاع رضاع فم



ابن الرومي

التي جرفت معها معظم شعراء ذلك العصر، فلم يتذكر شاعر منهم أمه، ولنا أن نتساءل: ألم يفجع هؤلاء بأمهاتهم؟ ألم يشعروا بألم الفقد تجاههن؟ ألم تشغلهم فكرة الأمومة طيلة حياتهم؟... تلك أسئلة لا إجابة لها، فلا جرير ولا الفرزدق ولا ثالثهما الأخطل يستطيع أن ينفذ عنه تراب القبر فيجيبنا عنها.

«حالة فريدة»

إلا أن هذا العصر قد منحنا حالة فريدة لثناء امرأة وهي زوجة جرير (١) التي تأثر بفقدائها غاية التأثر وترك فيها قصيدة رائعة وهي الرائية التي يقول فيها:

لولا الحياء لها جني استعبار

ولزرت قبرك والحبيب يزار (٢)

وبذلك نكون قد عثرنا على أول قصيدة قالها شاعر في رثاء امرأة، وعلى الرغم من أنها ليست في رثاء الأم، إلا أن ذلك يعني أن الشعراء سوف يلتفتون بعد ذلك لأمهاتهم فيغمسون أقلامهم في مداد الحزن، ليسجلوا أروع ما عرف الرثاء في شعرنا العربي ذلك هو رثاء الأم حيث لا رغبة ولا رهبة بل هو الحب، والوفاء الخالص، والشعور الحاد بالفقد.

«بكائية ابن الرومي»

اتصل حبل رثاء المرأة من جرير إلى ابن الرومي صاحب أول بكائية للأم في شعرنا العربي عن طريق بشار بن برد وأبي تمام وابن المعتز، فقد رثى كل منهم جارية له - بتعبير الديوان - وبهذا ندرك أن رثاء المرأة في الشعر العربي بعد جرير قد اتصل، فقد تلقف الشعراء فكرة رثاء المرأة من جرير واتبعوه متخذين منه إماما في ذلك الشأن، إلا أن ابن الرومي سيكون صاحب أول مرثية للأم



«بكائية كشاجم:

وسط حديقة ديوانه الغناء تتوارى بدمعها مقطوعة
صغيرة لا تتجاوز سبعة أبيات يبكي فيها محمود بن
الحسين المعروف بكشاجم أمه، وفيها يقول:
يهون من وجدي وليس بهين

سلامتها بالموت من جرعة الشكل^(٥)
وكان عليها أن أقدم قبلها
أشد وأدهى من تقدمها قبلي
ويهمنا فيها بصفة خاصة هذا البيت:
سترضع عيني قبرها من دموعها

بما كلفته من رضاعي ومن حملي
وهو المعنى الذي سيكمل على يد الشريف الرضي
في قصيدته الرائعة في رثاء أمه وأعني البيت:
كان ارتكاضي في حشاك مسبياً
ركض الغليل عليّ في أحشائي

«بكائية المتنبّي:

أفق عاصف من الحزن
والاغتراب والتمرد على
الموت تلك هي قصيدة سيد
الشعر العربي. ولم يرث
المتنبّي أمه وإنما رثى جدته
التي كانت له بمثابة
الأم، وبقدر ما
كانت وفاة جدته
ذات أثر قاس



المتنبّي

عليه، جاءت قصيدته رائعة خالدة، كما أن السبب
في وفاة الجدة زاد المتنبّي من الشعور بالفقد، فأرسل
نفسه على سجيته فباح، وبالفرد ماباح!!
ألا.. لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذماً

فما بطشها جهلاً ولا كفها حلماً^(٥)
لك الله من مضجوعة بحبيبها
قتيلة شوق غير ملحقها وصما
أحن إلى الكأس التي شربت بها
وأهوى لمثواها التراب وما ضما
بكيت عليها ضيفة في حياتها

وذاق كلانا شكل صاحبه قدما
وإذا كانت وفاة الجدة قد أذاقت المتنبّي مرارة
فعل الأيام، فإن شعوره بأنه كان سببا في هذه الوفاة
ضاعف من شعوره بهذه المرارة القاتلة، وذلك لأنه كتب
إلى جدته كتابا يسألها المجيء إليه في بغداد، بعد أن
يُسْت من رؤياه فكان لفرحها بكتابه أثر في إصابتها
بالحمى، ثم توفيت على أثر ذلك من فرحها بقرب
لقائه، وفي ذلك يقول المتنبّي:

أتاها كتابي بعد يأس وترحة
فماتت سروراً بي، فمت بها غما
حرام على قلبي السرور فإنني
أعد الذي ماتت به بعدها سُما
تعجّب من لقطي وخطي كأنما
ترى بحروف السطر أغرية عُصما
وتلثمه حتى أصار مداده
محاجر عينيها وأنيابها سُحما
وكنت قبيل الموت أستعظم النوى
فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى
هبيني أخذت الثأر فيك من العدى
فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى
وما انسدت الدنيا عليّ لضيقها
ولكن طرفاً لا أراك به أعمى

«بكائية أبي فراس الحمداني:

بعيدا عن وطنه وأهله.. محروما من حريته.. يجيئه نعي أمه.. تلك هي حالة الشاعر الفارس أبي فراس الحمداني الذي كان أسيرا عند الروم وإذا به يصبح مطعونا بخبر وفاة أقرب الناس إليه.. إنها تجربة فريدة: الأسر.. والفقد.. تجربة قد لا يستطيع أن يعبر عنها إلا أبو فراس الحمداني.. فلنستمع إليه:

أيما أم الأسير سقاك غيث

بكره منك، مالمقي الأسير

أيما أم الأسير سقاك غيث

تحير، لا يقيم ولا يسير

أيما أم الأسير سقاك غيث

إلى من بالظدا يأتي البشير

ثم يقول أبو فراس بعد هذا المفتاح الثائر غير المعهود في شعرنا العربي:

أيما أماء، كم هم طويل

مضى بك لم يكن منه نصير

أيما أماء، كم سر مصون

بقلبك مات ليس له ظهور

أيما أماء، كم بشرى بقربي

أتتك، ودونها الأجل القصير

إلى من أشتكي؟ ولئن أناجي

إذا ضاقت بما فيها الصدور؟

بأي دعاء داعية أوقي؟

بأي ضياء وجه أستنير؟

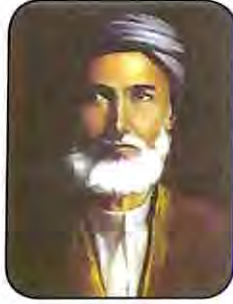
تسلى عنك إنا عن قليل

إلى ما صرت في الأخرى نصير^(٦)

بقي أن نعرف أن أبا فراس أكثر الشعراء استدعاء للألم في شعره، فقد ذكرها في العديد من قصائده المعروفة باسم «الروميات» وهي التي قالها في أسره ببلاد الروم، ومن ذلك قصيدته الرائعة التي مطلعها:

يا حسرة ما أكاد أحملها

آخرها مزعج وأولها^(٧)



أبو فراس الحمداني

«بكائية الشريف الرضي:

لعلها أجمل قصائد رثاء الأم في شعرنا العربي على الإطلاق، لأنها جاءت خالصة في فنها، فكل قصيدة قيلت قبلها في رثاء الأم صاحبها من الظروف ماجعها قصائد مشوبة إما بذكر الأسر كقصيدة أبي فراس، أو بذكر التغرب كقصيدة المتنبي، أو بشغل الشاعر بنفسه عن أمه مثل قصائد ابن الرومي وأبي العلاء المعري كما سنرى، أما الشريف الرضي فقد تكاملت له أسباب

الصفاء الروحي، فله نسب شريف طاهر^(٨) ومجد قديم، وبيت عز وكرم، إلى جانب مكانة سياسية خطيرة، وتأثير كبير في أحداث زمنه. ولذلك فإن رثاءه لأمه جاء على درجة كبيرة من الرقي الفني، وبرغم أنه لم يكن قد تجاوز السادسة والعشرين من عمره إلا أن هذه القصيدة التي تسير في تناغم ونمو مطرد لا يشوبها قلق نفسي أو اضطراب مشاعر أصبحت علامة بارزة بين أخواتها في هذا الشأن، ولنستمع إلى مطلع هذه القصيدة لنبصر كيف يبني الشاعر قصيدته الخالدة^(٩):

أبكيك لو نقع الغليل بكائي

وأقول لو ذهب المقال بدائي

وأعوذ بالصبر الجميل تعزيا،

لو كان بالصبر الجميل عزائي

طورا تكاثرني الدموع، وتارة

أوي إلى أكرومتني وحيائي

كم عبرة موهتها بأناملي،

وسترتها متجملاً بردائي

وانظر إلى وقار الشاعر وقد ثملته فراق الألم وكيف

عبر عن ذلك فقال:

فارقت فيك تماسكي وتجملي

ونسيت فيك تعزري وإبائي

وصنعت ماثلهم الوقار صنيعه

مما عراني من جوى البرحاء

قد كنت أمل أن أكون لك الضدا

مما ألم، فكنت أنت فداي



فليت أذين يوم الحشر نادى
فأجهشت الرمام إلى الرمام
إلى هذا الحد يشعر أبو العلاء بمرارة الفقد حتى
إنه ليتمنى قيامة يتلاقى فيها ساكنو القبور.. لقد
لمس أبو العلاء وتر الحزن في نفسه الساكنة فثارت
تأثيرتها، بل.. قامت قيامتها ولم يفلح في إخفاء شعور
الضعف الإنساني هذا بل لعله لم يحاول.. فما أجمل
الحزن تأثراً!

«بكائية ابن سناء الملك»

ليت هذا القاضي السعيد ابن سناء الملك استجاب
لدواعي النفس الحزينة لما توفيت أمه، ونحى جانباً
دواعي الفنية الشعرية: إذن لقلب موازين
عصره بل كل تلك العصور التي عرفت
باسم عصور الظلام التي سقط فيها
الشعر العربي في هاوية المحسنات
البديعية والفنون القولية، وصار ظلاً
باهتاً مكرراً في جميع دواوين شعراء تلك
الفترة.

ويكفي أن يطالع المرء كتاباً كالخريدة
للعقاد الأصفهانى ليدرك كيف سار
الشعر والنثر في هذه الفترة سريعاً نحو
هذه الهاوية، إننا - بالطبع - لسنا نعدم
نماذج جميلة، بل رائعة، ولكنها قليلة، ولذلك اكتفينا
بابن سناء الملك مثلاً على شعر هذه الفترة جميعها.
ولنحاول أن نقف على قصيدته - التي بلغت
سبعة وعشرين بيتاً - بيتين أو ثلاثة تجلت فيها أحزانه
متجردة عن ملابس المحسنات البديعية التكرية.. يقول
ابن سناء:

ياجنة صددت فلي أمل

صاد لها ويصدها صالي

والله لو حدثت عن خبري

لعلمت أني بعدك التالي

دائي الحياة فمن يبشرني

منها بإفراق وإبلال^(١)

على هذا المنوال رثى الشريف الرضي أمه في
قصيدة أودعها غف مشاعره، إلا أن بناءها الفني
كان متماسكاً لدرجة توحى بأنها قصيدة لينة هشة،
والصحيح أنها كالبحر الذي يبدو سطحه هادئاً، بينما
تتج أكثر من حياة في باطنه العميق.
ولا بد أن نختم حديثنا عن هذه القصيدة بهذين
البيتين الخالدين.. أولهما:

رزآن يزادان طول تجدد

أبد الزمان: فناؤها ويقائي

والبيت الآخر هو الذي سبق أن ذكرناه:

كان ارتكاضي في حشاك مسبباً

ركض الغليل عليك في أحشائي

«بكائية أبي العلاء المعري»

كعاداته في قصائد ديوانه «سقط
الزند»^(٢) يقيم فيلسوف المعرة بناءً شعرياً
متكاملاً حين يرثي أمه.. الحزن هنا
يتمازج مع أفكار أبي العلاء الفلسفية التي
كانت وليدة في عقله لم يظهرها بعد في
لزومياته، وهنا أيضاً الإشارات التاريخية
والتلاعب بالألفاظ وغير ذلك من مكونات
بناء القصيدة عند أبي العلاء.. ولذا فهي
القصيدة الوحيدة التي تدعو لقراءتها
أكثر من مرة لاكتشاف أسرارها المخبوءة وللتمكن من
الإمساك بخيط الحزن الدقيق المتواصل في أبياتها
جميعاً..

ولنقف قليلاً عند الأبيات القليلة التي ظهر فيها
حزن أبي العلاء عارياً وهو الحريص على إخفائه لكي
يخفي معه ضعفه الشخصي وحيداً.. أعمى!!

مضت وقد اكتهلت فخلت أني

رضيع ما بلغت مدى الفطام

فيأركب المنون أما رسول

يبلغ روحها أرج السلام

سألت: متى اللقاء؟ فقيل: حتى

يقوم الهامدون من الرجام



أبو العلاء المعري

«بكائية البارودي»

لن ينسى الشعر العربي صنيعه.. لن ينسى أنه مديدا مباركة الإلهام فانتشله من هوته التي رقد فيها سنوات طويلة يزرع تحت أثقال وأعباء المحسنات المهترئة.. ذلك هو البارودي.

إننا لن نبالغ في تقديرنا لشعره فهو متبع لما قبله من فحول الشعراء العرب بلا شك، إلا أننا لانستطيع إلا أن نذكر ببالغ العرفان والتقدير دوره العظيم في إحياء الشعر العربي، وبهذا الدور الريادي كان على البارودي أن يفتح مرة أخرى باب مراثي الأم، ويشاء الله أن تكون حالته مشابهة لحالة أبي فراس الحمداني؛ فقد كان هذا أسيرا في بلاد الروم، وكان البارودي في الحرب وأتاه نعي أمه كطعنة غادرة لم يكن يتوقعها لذلك، كتب ما أملته عليه شاعريته العظيمة فقال^(١٢):

وأي حياة بعد أم فقدتها

كما يفقد المرء الزلال على الظما
تولت، فولى الصبر عني، وعادني

غرام عليها شف جسمي، وأسقما
فيا أمّتا، زال العزاء وأقبلت

مصائب تنهى القلب أن يتلوما
وكنّت أرى الصبر الجميل مثوبة

فصرت أراه بعد ذلك مأثما

الهوامش:

(١) هي «أم حزره» زوجته المشهورة، والتي ذكرها من قبل في قصيدته في عبد

الملك بن مروان حيث قال:

تعزّت أم حزره ثم قالت

رايت الواردين ذوو امتياح

تعلل وهي ساعبة بنّيا

بانفاس من الشيم القراح

(٢) ديوان جرير/١٥٢

(٣) ديوان ابن الرومي ٢/٢٨٨، ومطلعها:

ليبك عليك القلب لا العين إنني

أرى القلب أوفى بالعهود وأكرما
وللبارودي إلى جانب هذه القصيدة الرائعة ثلاثة أبيات في رثاء حاضنته وهي تجربة فريدة في الشعر العربي وحالة وفاء نادرة، والأبيات في ديوانه ولولا الإطالة لأثبتناها.

«خاتمة»

لم يزل غياب الأم عن دواوين الشعراء حتى ابن الرومي يثير تساؤلات عديدة فلا نملك إلا التعجب، وإذا كان جرير قد فتح باب الرثاء للمرأة، في الشعر العربي فإن ابن الرومي حامل راية السبق في شعرنا العربي بالنسبة لرثاء الأم، وهو المد الذي لم ينقطع إلى اليوم ولا نحسبه ينقطع إلا أن يصبح فينا شعراء

كأجدادهم شعراء الجاهلية.

لا بد أن نذكر هناك حالات لرثاء الأم لم نذكرها لأنها رثاء غير خالص أعني به رثاء الشاعر لأم الممدوح كفعل المتبني في رثاء أم سيف الدولة، وغيره من الشعراء، وهو وإن كان في رثاء الأم إلا أنه يخرج عن موضوع مقالنا.

أخيرا.. كان لا بد أن نختم حديثنا عن رثاء الأم بقصيدة البارودي لأنها تعتبر فاتحة الباب في هذا العصر الذي يحتاج ولاشك لمقالة أخرى نلمس فيها أحزان الشعراء المضاءة في قصائدهم الدامعة ■



البارودي

لقب بالشريف الرضي الموسوي رضي الله عنه وعن آبائه الطاهرين.

(٩) ديوان الشريف الرضي ٢٦/١

(١٠) انظر بكائيته في الديوان ١٦٦، وله

مقطوعة أخرى في رثائها جاءت في

عشرة أبيات. المصدر نفسه ١٩٢

(١١) ديوان ابن سناء الملك/٥١٥، وله قصيدة

أخرى/٤٩١، فلتراجع.

(١٢) ديوان البارودي، ٤٨٩.

أقبضا دماً إن الرزايا لهم قبمٌ
فليس كثيرا أن جود لها يدم

(٤) ديوان كشاجم/١٥١

(٥) انظرها في ديوانه/١٧٤

(٦) ديوان أبي فراس/١٦٢

(٧) المصدر نفسه/٢٤١، وهي من عيون الشعر

العربي

(٨) جاء في الديوان: ارتقى بنسبه إلى موسى

الكاظم، قال الحسين بن علي، ولهذا